الفصل الأول

◆ ◆ ◆

الأكاذيب التي يطلقها أتباع قابيل

من الخطأ أن نتصور قابيل وكأنه إيڤان الرهيب[1]. بمعنى أنه ليس شريراً بصورة ظاهرة للعيان. لذلك لا يمكنك التعرف إليه من خلال تصرفاته اليومية التي تبدو اعتيادية. حتى إنه لا يعتبر تصرفه تصرفاً مشيناً.

بيد أن طموح قابيل لا يخفى على المراقب، فهو لا يتورع عن فعل أي شيء لتحقيق طموحاته ورغبته الجامحة في النجاح. وهو على استعداد لاستغلال الآخرين، وطعن زميل له في الظهر إذا اقتضى الأمر، ولا يستحي من تضليل من حوله والمفاخرة بذلك. لماذا؟ الجواب؛ أنه لا يريد الارتقاء على حساب الآخرين فحسب، بل يريد أيضاً أن يبرهن لنفسه بأنه يتمتع بمركز وسلطة لا يتمتع بها من حوله.

ولكن كيف يستطيع مثل هذا المرء أن يعيش مع نفسه؟ كيف يستطيع أن يواجه نفسه عندما ينظر في المرآة؟ والجواب هو أنه يغش نفسه.

يمكن القول بأن قابيل يمثل الذروة في فن خداع النفس.

---

(1) قيصر حكم روسيا في القرن السادس عشر وقد اشتهر بالطغيان والوحشية.

إن أسهل أشكال الكذب هو الكذب على الذات. إذ يكفي أن نقنع أنفسنا بـ «كذبة» معينة بحيث تبقى الكذبة مستترة إلى الأبد في حواسنا الباطنية Subconscious.

إننا جميعاً نكذب على أنفسنا إلى حد ما. ولكن خداع النفس من السمات الأساسية التي يتسم بها قابيل.

ولكي نفهم طبيعة قابيل يجب أن ندرك أنه لا يرتكب شروره وهو بكامل وعيه، بمعنى أنه لا يتصرف تصرفاً فاضحاً بالصورة التي عودتنا عليها هوليوود في أفلامها التقليدية عن رجل الأعمال أو السياسي الفاسد. فمثلاً في المسلسل التلفزيوني «وول ستريت Wall Street» نجد نموذجاً لرجل الأعمال الذي يمثل ذروة الطمع حين يقول: «اسمع، لا يهمني تلوث البيئة إذا كان ذلك يحقق لي الربح». ويبدو أحياناً بأن كُتّاب المسلسلات التلفزيونية يعتقدون بأن غالبية الجرائم في أميركا يرتكبها كبار المدراء التنفيذيون CEO.

والواقع أن قابيل في أغلب الأحيان يتعامل مع الناس بالحسنى، وليس غريباً أن يحب عائلته، وأن يكون له بضعة أصدقاء يعتز بصداقتهم. وكما يقول المغني دين مارتن في إحدى أغانيه: «كل واحد منا يحب شخصاً ما في وقت ما».

بيد أن قابيل يغتنم كل فرصة للارتقاء وعندما يشعر بأن مصلحته مهددة فعلى هابيل أن يلزم جانب الحذر.

نموذج حي 1

يعمل آرثر وهيذر في دائرة العلاقات العامة في مؤسسة كبيرة، حيث يشغل آرثر منصب المساعد الإداري لرئيس الدائرة، أما هيذر فتعمل كاتبة. هنا يلعب آرثر دور قابيل في حين تلعب هيذر دور هابيل. ارتقى قابيل سلم الوظيفة بالمكر والدهاء، أما هيذر فقد كانت مثالاً للفرد الذي يعين الآخرين في الظروف الصعبة.

وفي أمسية يوم جمعة، أتى رالف، أحد زملاء هيذر، وعرض عليها مشكلة تواجهه. كان رالف قد أعد نسخة عن التقرير السنوي للشركة لعرضه على المدير. وكان على قناعة بأن المدير سيرفض التقرير لأنه متحامل عليه، ويكن له كراهية شديدة، وقد تأكد له ذلك في عدة مناسبات حين طلب المدير منه إعادة ما كتبه قائلاً بغضب وهو ينتفض في مقعده الجلدي الوثير: «إذا كان هذا التقرير من نتاج رالف فلا قيمة له! اجعلوه يعيد كتابته».

كان رالف قد اعتاد على تقبل هذا الوضع كأمر لا مفر منه، ولكنه هذه المرة بدا هائجاً وملتاعاً في حديثه مع هيذر التي أسّر إليها بأنه مضطر لحضور حفل زفاف عائلي مع زوجته في اليوم التالي خارج الولاية، ويخشى ألاّ يتسنى له ذلك إذا رفض المدير تقريره وأصر على إعادة كتابته، وهذا سيضطره إلى قضاء عطلة نهاية الأسبوع منكباً على الكتابة كي يستطيع تسليم التقرير صباح الإثنين. وفي هذه الحالة لن يتمكن من حضور حفل الزفاف الذي كانت زوجته تتوق لحضوره، إضافة إلى أنهما كانا قد ابتاعا تذاكر الطائرة ولم يعد بالإمكان استرداد قيمتها. بالطبع يمكن للزوجة أن تسافر بمفردها، لكن ذلك سيكون صعباً على الزوجين. إليك الآن بعضاً من الحديث الذي دار بين هيذر ورالف.

رالف: إني حقاً في حيرة من أمري. ماذا أفعل؟

كان تعاطف هيذر واضحاً، إذ أجابت: «انظر ـ إني أعلم أنه يتصرف تصرفاً لا عقلانياً معك ولكنه من وجهة أخرى يعتبرني موظفة ممتازة، دعني أراجع ما كتبت، ولعلي أجري بعض التغييرات إذا اقتضى الأمر. ومن ثم سأسلمها إليه دون الإشارة إلى كاتب التقرير».

«وماذا لو سألك»؟.

فكرت هيذر برهبة ثم أجابت: «عندئذ سأطلعه على حقيقة الأمر. سأخبره بأني راجعتها وأجريت بعض التغييرات، وأعتقد بأنه سيقبل التقرير بعد أن يطمئن إلى أني أعدت كتابته».

وفعلاً نجحت الخطة؛ إذ راجعت هيذر التقرير وأجرت بعض التعديلات الطفيفة، سلمته إلى المدير الذي أبدى سروره قائلاً: «أحسنتِ صنعاً، إنه لا يقارن بالتقارير السخيفة التي يكتبها رالف». وبطبيعة الحال استطاع رالف وزوجته أن يحضرا حفل الزفاف العائلي ويقضيا وقتاً ممتعاً.

وفي إحدى المناسبات التي جمعت موظفي الشركة ذكر رالف الحادثة لـ آرثر (قابيل)، فلم يعلق عليها شيئاً بل أبقاها في ذاكرته لعل هذه المعلومة تفيده في المستقبل.

كان آرثر من الرجال الطموحين إلى أبعد الحدود، وكان على استعداد لعمل أي شيء للارتقاء في عمله. وباعتباره المساعد الإداري لرئيس القسم كان على اطلاع كامل على تدفق المعلومات والمذكرات التي ترد إلى المدير العام، وهذا ما مكنه من سرقة مقترحات الآخرين وتحريرها على أنها من بنات أفكاره بعد إعادة صياغتها.

انقضت شهور دون أن يتنبه أحد إلى الاحتيال الذي كان يمارسه آرثر، الذي أخذ يحظى بتقدير رؤسائه وحصل على عدة زيادات في الراتب نتيجة «لمساهمته القيّمة» في إدارة الشركة.

وسرعان ما تحسنت أحوال آرثر، فاقتنى سيارة مرسيدس وصار ينعم بحياة مرفهة. وذات يوم خطر لـ «ماري» إحدى الموظفات أن تسأل رئيس القسم عن رأيه بمقترح كانت قد قدمته في مذكرة بعثتها إليه. فوجئ رئيس القسم، الذي كان يظن أن «الفكرة» طرحها آرثر أصلاً.

ولدى التحقيق في الأمر، بانت الحقيقة، واستدعي آرثر لتبرير موقفه أمام رئيسه. وهنا لم يجد آرثر ما يقوله دفاعاً عن نفسه سوى القول: «إن مثل هذا الأمور تحصل دائماً في الشركة». ثم أردف: «إن هيذر، مثلاً، تدعي أشياء يعود الفضل في إنجازها لغيرها».

لكن هذا الاتهام الموجه إلى هيذر لم ينقذ آرثر الذي فُصل من عمله. أما هيذر ورالف فقد شرحا تماماً ما حصل للمحقق ولم يخفيا شيئاً. وكانت النتيجة أن المدير وجه توبيخاً حاداً إلى هيذر لكنها بقيت على رأس عملها لمدة، ثم استقالت من عملها بعد أن وجدت أن رئيسها لم يعد يثق بها ولا ينوي ترقيتها مستقبلاً.

لنكن منصفين: لم تفعل هيذر شيئاً يستحق اللوم. كل ما هنالك أنها ساعدت أحد زملائها في وضع صعب، ولم تهدد آرثر أو تمسه بأذى إطلاقاً.

إذن، لماذا عمد آرثر (قابيل) إلى توريط هيذر، علماً بأن اتهامها لا مبرر له إطلاقاً في هذه الحالة. إذ لم يكن لها أي عداء أو ضغينة فضلاً عن أنها لم تكن في وضع منافس له بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

إن الجواب عن هذا السؤال يكمن في طبيعة قابيل:

- فهو دوماً يبرر سلوكه قائلاً بأن «الكل يفعل ذلك».
- عندما تعييه الحيلة، يهاجم الآخرين معتبراً أن أفضل وسيلة للدفاع هي المهاجمة، حتى لو كان ذلك لا يجدي فتيلاً.
- وهو عديم الضمير بالمعنى العادي للكلمة، أي إنه لا يكترث للأذى الذي يسببه للأبرياء، ولا يأبه إلا لحماية نفسه.

يؤكد هذا المثال الحي القاعدة الجوهرية التالية:

- **إن مجرد وجود أمثال قابيل حولك يشكل خطراً.**

وثمة ظروف معينة تجعل قابيل لا يتورع عن ارتكاب أي عمل مهما كان شائناً، للدفاع عن نفسه وإلحاق الضرر بمن حوله، وربما بك أنت.

بالإضافة إلى ما تقدم هناك درس آخر يمكن استخلاصه من هذا المثال الحي: وهو أنه كان الأولى بـ «رالف» وهيذر أن يكتما الحادثة. لقد أخطأ رالف في ذكر الموضوع لـ «آرثر» إذ لم يكن ثمة مبرر لذلك. في حين أخطأت هيذر بعدم تنبيه رالف بإبقاء الموضوع طي الكتمان. لقد أخفق كلٌّ منهما في التنبه إلى سؤالين بسيطين:

1 ـ ماهي الفائدة المرجوة من إطلاع الآخرين على سيرة يمكن أن تكون مصدر إحراج.

2 ـ ما هي العواقب التي قد تترتب عن إطلاع طرف ثالث على ما جرى.

يميل أمثال هابيل إلى الصراحة وبذل ما بوسعهم لمساعدة الآخرين، ولكن هذه الصفات الحسنة قد تسبب متاعب لهم عندما يتعاملون مع أمثال قابيل. لذلك إذا كنت مثل هابيل وهذا ما نرجحه، فالأولى بك أن تسأل نفسك السؤالين المطروحين آنفاً، حتى وإن كنت مقتنعاً بأنك محاط بالأصدقاء. وذلك لأن قابيل شخصية واهية وملتوية إلى حد يستطيع بها إيهام أمثالك بصدق نواياه.

عليك أن تتذكر دوماً الحقيقة التالية:

- **معرفة الآخرين مصدر قوة، ومن طبيعة قابيل أن يسيء استخدام هذه المعرفة وهذه القوة.**

يعاني قابيل من مرض «الرؤية الضيقة» وهي عبارة كان الرئيس بوش (الأب) قد استخدمها. وذلك لأن قابيل لا يرى سوى نفسه كمن ينظر إلى انعكاس صورته في المرآة. إن الشيء الوحيد الذي يعنيه هو مصلحته

الشخصية، وهذه المصلحة الشخصية تعني بالنسبة له ارتقاء سلم السلطة، والثراء والجاه ونيل الإعجاب.

وقابيل هذا لا يردعه ضميره ولا تعتبر تصرفاته مبادئ أخلاقية. وذلك لأنه قادر على كبت صوت الضمير على نحو لا يمكن لـ هابيل أن يفعله لأن حياته وطبيعته عموماً تمنعانه من ذلك. أما قابيل فيخدع نفسه ويوهمها بأنه لا يمارس عملاً معيباً. وهذا المنحى هو الذي يسمح له بالمكر والخداع والتآمر في سبيل تحقيق رغباته.

من هذا المنطلق يمكن القول بأن هابيل يمثل بحق نقيض قابيل. فمثلاً، قد يشعر هابيل بالذنب إذا وصل إلى مكتبه متأخراً، أو إذا شعر بأنه لا يبذل الجهد الكافي، أو إذا تقدم بطلب إجازة مرضية دون أن يكون مريضاً، أو إذا قضى فترة الغداء خارج مكتبه مدة أطول من المعتاد. وهنا يجدر الإشارة إلى أننا نستخدم صيغة المذكر في تعابيرنا علماً بأن النساء يعانون من هذا «الشعور بالذنب» أكثر من الرجال؛ ربما لأن المجتمع يُلزم النساء بعدد من الواجبات التي لا يطلبها عادة من الرجال ـ مثل العناية بالأطفال أو رعاية الوالدة أو الوالد المسنَّين.

الجميع يفعل ذلك. إذاً ما لديّ يمنعني من فعل الشيء نفسه؟

سبق وذكرنا أن بعضاً من صفات قابيل وهابيل تكمن في كل واحد منا. لكن قابيل يتميز بأنه يوهم نفسه بأن الجميع على شاكلته، وأنهم يفعلون ما يفعله غير أنه «أشطر» منهم. وهذا ليس بمستغرب فكلنا يميل إلى الظن بأنه يوجد من هو أسوأ منه، وهذا يجعل قابيل يعتقد أو يتوهم بأن الآخرين ليسوا بأحسن منه.

وهذا الاعتقاد بالطبع يقوم على قناعة قابيل بأن كل من حوله يسعى وراء مصلحته، وهذا ما يزيح عن كاهله عبء المسؤولية الفردية، ويؤدي إلى اقتناعه بأن ما يفعله ليس خارجاً عن المألوف، وبأن الجميع يفعل الشيء نفسه بطريقة أو بأخرى.

وهكذا يبرر قابيل أفعاله بتصوره بأن نوايا الآخرين لا تختلف عن نواياه، ولهذا فإن استغلالهم لا يمكن اعتباره عملاً غير أخلاقي.

نموذج حي 2

كان مندوب المشتريات لإحدى الشركات يزور أحد المصانع التي تزود شركته بقطع معينة تتعلق بصناعة السلع التي تنتجها الشركة. وفيما كان المندوب يتجول في المصنع برفقة مدير المصنع، لاحظ أن العمال كانوا يعملون في بيئة غير صحية تفتقر إلى النور والهواء، ناهيك عن الحرارة المرتفعة. وكان العمال قذري المنظر ويبدو عليهم التعب والبؤس. وفوق كل هذا كانت أجورهم متدنية إلى حد لا يصدق.

وعندما طلب أحد العمال من المدير أن يأذن له بالتوقف ليروي عطشه، كان جواب المدير: «تستطيع أن تذهب لتشرب، ولكن لا تفكر بالرجوع إلى عملك بعد ذلك».

أمام هذا المشهد لم يستطع المندوب أن يتمالك نفسه، وقال للمدير: «بالله عليك، كيف تستطيع أن تجعل أي إنسان يعمل في جو كهذا؟ والله لن أعمل في مكان كهذا مهما كان الأجر».

عندئذ أجابه المدير:

«إن نصف هؤلاء العمال دخلوا البلاد على الأرجح بصورة غير مشروعة الأسبوع الفائت. ولولا وجودهم هنا لكانوا الآن يتسكعون في الطرقات أو يجلسون سكارى في أقذر الأمكنة. وعلى أي حال فإنهم لن يتحملوا البقاء هنا مدة أطول من ستين يوماً».

وهكذا يبرر قابيل تصرفاته متوهماً بأن «الجميع يفعل ذلك»، وبأن

السلوك البشري تسيره المصالح الذاتية فقط، وهذا التصور هو الذي يمكّن قابيل من المحافظة على احترامه لنفسه.

وعلى ذلك نجد قابيل يحط من قدر نفسه وقدر الآخرين لتبرير استغلاله لهم، ويقنع نفسه بأنهم يستحقون الاستغلال لأنهم ـ بحسب تعريفه ـ إما أغبياء أو مخادعين وماكرين مثل قابيل نفسه[3]، وقد يسخر قابيل من هابيل ويغتابه في محاولة لتبرير سلوكه وجعل الآخرين يتفقون معه في نظرته إلى هابيل.

إن سوء الظن بنوايا الآخرين يجعل قابيل يؤمن بالمبدأ القائل بأن الوسائط تبررها الغايات، على الأقل من وجهة نظره.

نموذج حي 3

يحظى أحد المرشحين السياسيين بسمعة حسنة لدى الجمهور. فقد كانت الدلائل تشير إلى أنه كان دوماً مستقيماً وخلوقاً. وخلال عدة سنوات أيّد العديد من القضايا العادلة ووقف دائماً إلى جانب الحق. لذلك كان ينعم باحترام وإعجاب العديد من الناس لمواقفه المبدئية وأمانته.

بيد أنه كان مديناً بسمعته الطيبة إلى مواقفه السياسية، وليس لاعتبارات تتصل بأخلاقه أو شرفه الشخصي. بعبارة أخرى كان انتهازياً في سلوكه، يؤيد القضايا التي تزيد من شعبيته وما تمليه الظروف بقطع النظر عن قناعاته الشخصية.

وحدث ذات مرة في إحدى حملاته الانتخابية أن عرض عليه أحد

---

(3) يحضرني في هذا السياق قول المتنبي:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه ... وصدق ما يعتاده من توهم

ـ المعرّب ـ

الممولين مبلغاً كبيراً من المال كتبرع منه لحملته الانتخابية[4]. لكن مستشاريه السياسيين حذروه من قبول المبلغ الذي قدمه الشخص المتبرع نظراً لماضيه المشبوه. علماً بأن المرشح المنافس كان شخصاً مرموقاً وثرياً.

وعندما استفسر المرشح عن الشخص المتبرع، قيل له بأنه متهم بالاختلاس والغش.

لكن المرشح بقي متردداً. فهو بحاجة إلى المال لمواجهة منافسه الثري. ثم سأل مستشاريه عما إذا كان الرجل قد أدين بجرم ما، فقالوا له بأنه لم يدن بأي جرم، ولكن ثمة الكثير من الدعاوى المرفوعة عليه أمام القضاء. وأخيراً سأل المرشح عما إذا كانت المحكمة قد بتت بالأمر فقيل له بأن المدعى عليه نجح في تعقيد القضية التي لا تزال عالقة منذ أكثر من ثلاث سنوات وقد لا يصدر بشأنها قرار نهائي.

عندئذ قرر المرشح قبول المال المعروض عليه قائلاً: «سآخذ المال. يكفي أن الرجل لم يرتكب جريمة قتل».

لا بد من القول بأن تشكيك قابيل الدائم بنوايا الآخرين يجعله يسيء الظن بالناس ويرتاب بدوافعهم أيا كانت، وهذا بدوره يقوده إلى تبرير تصرفاته وإقناع نفسه بأن ما يقوم به هو «لحماية» نفسه ومصالحه. وهكذا يدور قابيل في «حلقة مفرغة» بمعنى أنه يتخذ من سوء ظنه بالآخرين مبرراً لأفعاله، وهذا بدوره يؤدي إلى عقدة الارتياب المفرط التي تولد المزيد من سوء الظن، وهكذا دواليك.

(4) التبرع بالمال من قبل أفراد أو مؤسسات من الأمور المشروعة والمألوفة في الحملات الانتخابية في أميركا ـ المعرّب.

إن قابيل شديد الشك والارتياب في الآخرين إلى حد يفوق تصور هابيل. ولا غرو فهو يتوهم بأنه يواجه أفراداً ليسوا بأقل منه مكراً. لذلك فهو يشتبه بكل من حوله. وحتى إذا تبين له بأن فلاناً صافي النية فإن ذلك لا يخفف عقدة الشك عنده، لأن مثل هؤلاء ليسوا سوى بيادق تشارك في اللعبة.

من سمات قابيل اهتمامه بمعارف زيد أو عمرو. فهو دوماً يعتبر بأن نجاح فلان في عمله مرهون بالدعم الذي يأتيه من أصحاب النفوذ وعلاقاته مع هؤلاء. وإذا رشّحَ زيدُ من الناس لمنصب ما، فإن أول سؤال يتبادر إلى ذهن قابيل هو: «من الذي دعم زيداً وأوصى به»؟ في حين أن هابيل يسأل: «هل زيد مؤهل للقيام بهذا العمل؟». هذا هو الفرق بين الاثنين. إن سلوك قابيل وتصرفاته يدفع الآخرين لأن يحذوا حذوه لا شعورياً، وهذا ما يؤكد لـ«قابيل» بأنه محق في نظرته إلى الطبيعة البشرية.

فقدان الذاكرة أو التناسي

هناك جانب آخر لشخصية قابيل، وهو ذاكرته الانتقائية. فهو يختار فكرة جيدة لشخص ما وينسبها إلى نفسه. ويبلغ به الأمر إلى حد الاقتناع بأن الفكرة كانت حقاً فكرته.

وهذا نوع آخر من خداع النفس الذي يمارسه قابيل، إنه في الواقع يزوّر الحقائق لخدمة مصالحه وأغراضه. وهذا من أسوأ وأخطر أنواع الكذب، لأنه يمارس بصورة تلقائية (لا شعورياً)، ومن ثم يتوهم قابيل بأنه لا يتصف بصورة مشينة.

وهكذا لا يمكن أن يخطر ببال قابيل تصحيح سلوكه اللاأخلاقي ولأن سلوكه أخلاقي من وجهة نظره.

ثمة جانب آخر لخداع النفس الذي يمارسه قابيل والذي يجعله يتناسى دور الآخرين. وهذا الجانب يتمثل في عدم تحرجه من اتخاذ مواقف

متناقضة، لأنه لا يكترث بالمبادئ، إلا إذا كانت هذه المبادئ تخدم مصالحه وأغراضه. لذا فإنه لا يتورع عن تغيير مواقفه ومعتقداته دون أدنى حياء.

نموذج حي 4

كانت إحدى المرشحات تخوض معركة انتخابية صعبة لإعادة انتخابها. وقد عرف عن هذه السيدة بأنها ليبرالية، وبمعارضتها «المبدئية» لعقوبة الإعدام.

وكانت عدة جرائم قتل مروعة قد ارتُكبت في مقاطعتها خلال السنة الفائتة، حيث قُتل أحد رجال الشرطة عمدا، واختُطف طفل صغير وقتل خنقاً بعد اغتصابه، ثم اختفت شابة بعد خروجها من منزلها، وعثر بعد ثلاثة أيام على جثتها مقطعة الأوصال في إحدى حاويات القمامة.

من ناحية أخرى كان المرشح المنافس رجلا ينتمي إلى التيار المحافظ ويؤيد الإبقاء على عقوبة الإعدام. وكانت استطلاعات الرأي تشير إلى تزايد عدد المناصرين لموقف هذا المرشح، وهذا ما أثار قلق المرشحة.

ولدى تداولها الوضع مع أعوانها ومستشاريها تساءلت قائلة:

«أليس من الأفضل تأييد تطبيق عقوبة الإعدام على قاتل الشرطي؟».

عندئذ حدق فيها أحد مستشاريها، وهو يكاد لا يصدق ما سمعه وقال: «إذن، أنت تؤيدين تطبيق عقوبة الإعدام على كل من يقتل شرطياً، أليس كذلك؟».

فأجابت: «أجل، وما رأيك؟».

أجاب المستشار: «أرى أنه يتعين عليك أولاً أن تجيبي عن هذا

السؤال: لماذا تؤيدين تطبيق عقوبة الإعدام على الفرد الذي يقتل شرطياً ولا تؤيدين تطبيقها على الذي يغتصب ويقتل طفلاً عمره ثلاث سنوات؟».

أجابت المرشحة على الفور: «لأن مهنة الشرطي مهنة خطرة؛ فرجل الشرطة مُعرض للأذى أكثر من غيره».

«إن رأيكِ هذا يثير التساؤل»، أجاب المستشار وأردف قائلاً: «هل يعني جوابك أن الطفل الذي اختطف ثم اغتصب وخنق أقل عرضة للأذى؟».

اعترضت المرشحة قائلة بعصبية: «أنا لم أقل هذا.. بديهي أن ذلك الطفل معرّض أيضاً للاعتداء عليه».

«إذن، أنت تؤيدين تطبيق عقوبة الإعدام على قاتل الطفل البالغ الثالثة من عمره».

«ما قولكِ لو كان عمر الطفل أربع سنوات؟ أو خمس سنوات»؟ عندئذ سكتت المرشحة ولم تجب.

«ما قولك لو كانت الضحية شابة في العشرين من عمرها، قُتلت وقطعت أوصالها؟».

لم تنبس المرشحة ببنت شفه؛ فقد أعياها الجواب.

لم يكن لدى المرشحة الجواب، لأنها لم تفكر في القضية المطروحة إلا من منطلق ما تمليه عليها مصلحتها السياسية. ولم تكن معنية بالمبادئ إلا بمبدأ الربح والخسارة.

إن قابيل يغير آراءه حسب ما تقتضه مصلحته الفردية، ويتمتع إلى جانب ذلك بالقدرة على تأييد آراء ومواقف متناقضة دون تردد وعندما تدعو

الحاجة. إنه بعبارة أخرى قادر على التخلي عن معتقداته السابقة ثم العودة إليها عند الحاجة.

إن قابيل من النوع الذي لا ينحاز إلى أي طرف من النزاعات الداخلية، بل يتظاهر بالاتفاق مع جميع الأطراف، لأنه في قرارة نفسه لا يهتم بآراء هذه الأطراف سواء أكانت على خطأ أو صواب. فالصواب عنده هو الاتفاق مع رأي الشخص الآخر، أيا كان رأيه، إذا كان في ذلك منفعة له. وهذا بالطبع يتوقف على مركز الشخص ومدى النفع الذي يجنيه قابيل من التقرب منه.

إن أكثر ما يسعد قابيل هو عندما ينجح في إقناع كل طرف من الأطراف المختلفة بأنه حليف له، ولا سيما عندما تكون آراء هذه الأطراف متضاربة. إنه يسعى لإيهام كل فرد بأنه صديق ومؤيد له. وذلك لأنه يضمن بذلك وجوده مع الطرف الرابح أياً كانت النتيجة.إضافة إلى الطرف أو الأطراف الخاسرة التي ستنظر إليه بعين الرضا لأنه وقف إلى جانبها.

الدوافع الكاذبة

أشرنا سابقاً إلى أن قابيل يضلل نفسه من خلال رؤياه للدوافع الحقيقية للآخرين. كما يضلل نفسه بالنسبة لدوافعه بالذات. بمعنى أنه يزعم بأن الوسائل التي يستخدمها، حتى وإن كانت دنيئة، فهي لمصلحة الآخرين وليست لمصلحته.

وفي النهاية يصدّق قابيل كذبته هذه. لكن الأكذوبة تبقى أكذوبة. ويبقى قابيل على استعداد للتضحية بحياته العائلية ومودة أصدقائه واحترام زملائه في سبيل مصلحته الشخصية.

وكثيراً ما يردد قابيل على مسامع الآخرين أقوالاً مثل: «أنا لا أبحث عن الربح المادي» أو «أنا لا تهمني السلطة». وحقيقة الأمر أن العكس هو الصحيح. وكما أشرنا سابقاً: يتوهم قابيل أن الآخرين لا يتورعون عن بيع

ضمائرهم، وأن دوافعهم لا تختلف عن دوافعه، وهذا بدوره يعزز قناعته المزيفة بأن سلوكه له ما يبرره، أي إنه طبيعي.

لا تنسَ أبداً الملاحظة التالية: إذا قال لك قابيل إنه لا يكترث بالمال أو الجاه، فثق بأن العكس هو الصحيح.

إن قابيل محتال محترف، بالإضافة إلى كونه يواجه صراعاً بينه وبين نفسه. فهو بحاجة إلى أن يضلل نفسه وأن يكون في الوقت نفسه واقعياً في تحليله ومن ثم انتهازياً. وهذه الصفة تجعل تحليل شخصية قابيل أصعب من تحليل شخصية هابيل، وأكثر إثارة للاهتمام.

كلمة تحذير: لا تحاول تضييق الخناق على قابيل وإشعاره بأنك اكتشفت أمره، حتى وإن كنت تظن بأنك تفهم نفسيته. ذلك لأن إماطة اللثام عنه سيفقده الشعور بالأمان، ومن ثم ستعرض نفسك إلى مكائده من خلال تشويه أقوالك وأفعالك، وسيعتبرك من الآن فصاعداً عدواً له، وهذا مما لا تحمد عقباه، ولعلك تذكر ما حصل لشقيق قابيل.

obeikandl.com